السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٦)

يَتِيْمُ الأَبِ وَالأُمِّ

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

إِلَىٰ حِضْنِ الأُمِّ يَا غُلَامُ

تَعَالَوا أَيُّها الأَحِبَّةُ البَرَاعِمُ ؛ لِنَرَىٰ حَالَ الغُلامِ الَّذي لَمْ يَرَ أَبَاهُ ، وَلَمْ يَجْلِسْ مع أمِّهِ ، إِنَّما عَاشَ سَنَواتِ حَيَاتِهِ الأُولىٰ في البَادِيَةِ .

وَبَعْدَ أَنِ اشْتَدَّ سَاعِدُهُ ، وَقَوِيَ عُوْدُهُ ؛ عَادَتْ بِهِ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ إِلَىٰ مَكَّةَ ، فَسَلَّمَتْهُ لأُمِّه آمِنَةَ ، فَفَرِحَتِ الأُمُّ بِعَوْدَةِ غُلامِها فَرَحاً كَثِيراً ، فَلَقَدِ انْتَظَرَتْ عَوْدَتَهُ عِدَّةَ سَنَواتٍ ، كَانَتْ خِلالَها تَحْلُمُ بِه ، وَتَظُنُّ : أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شأنٌ عَظِيْمٌ ، كَمَا كَانَتْ تَرْجو أَنْ يُعَوِّضَها اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ فَقْدِ زَوْجِها عَبْدِ اللهِ بابنها مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَرَكَتْ آمِنَةُ

كُلَّ شيءٍ ، وَرَاحَتْ تُلاعِبُ غُلامَهَا ، وَتَمَازِحُهُ ، وَبَلَغَ حِرْصُها وَخَوْفُها عَلَيْهِ مَبْلَغاً كَبِيراً ، فَلَمْ تَكُنْ تَذْهَبُ إلى مَكانٍ إلا وهي تُمْسِكُ بِيَدِهِ ، وَلا تَنَامُ لَيْلَةً إلا وَغُلامها إلىٰ جِوَارِها...

كَيْفَ لا ؟ وَآمِنَةُ لا زَوْجَ لَها وَلا وَلد إلا ذَاكَ الغُلامُ مُحَمَّدٌ ﷺ .

* * *

قِمَّةُ الوَفَاءِ!!

وَيَتَلَفَّتُ الغُلامُ حَوْلَهُ ، فَلا يَرَىٰ إلا جدَّهُ عَبْدَ المُطَّلِبِ ، وَعَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ ، وَأَوْلادَ عُمومَتِه ، وَأُمَّه آمِنَةَ ، فَيَسْأَلُ : أَيْنَ أَبي ؟!

فَتَدْمَعُ عَيْنَا آمِنَةَ وَهِيَ تُجِيْبهُ : لَقَدْ مَاتَ وَدُفِنَ في يَثْرِب .

وَيَطْلُبُ الغُلامُ مِنْ أُمِّهِ أَنْ يَزُورَا قَبْرَ أَبِيْهِ .

وَتَتَحَامَلُ آمِنَةُ على نَفْسِها ، وَتَكْتُمُ حُزْنَها ، وَتَنْوِي أَنْ تُنَفِّذَ رَغْبَةَ وَلَدِهَا .

وَلَمَّا بَلَغَ الغُلامُ ﷺ السَّادِسةَ مِنْ عُمُرِهِ

هَمَسَتْ أُمُّهُ في أُذُنِهِ بِعَزْمِها عَلىٰ زِيَارَةِ أَخْوَالِهِ ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ أَبِيْهِ في يَثْرِبَ .

أَجَلْ! هَـٰذِهِ هِيَ قِمَّةُ الوَفَاءِ ، فَآمِنَةُ عِنْدَمَا مَاتَ زَوْجُها كَانَتْ في رَيْعَانِ الشَّبَابِ ، وَقَدْ أُوْتِيَتْ قِسْطاً كبيراً مِنَ الجمَالِ ، لِذَلِكَ فَقَدْ تَقَدَّمَ لِخِطْبَتِها الكثير مِنْ شَبَابِ قُرَيْشٍ ، لَـٰكِنَّ وَفَاءَهَا لِزَوْجِها ، وَإِصْرَارَهَا علىٰ رِعَايَةِ وَلَدِهَا الوَحِيدِ ، جَعَلاهَا تَرْفُضُ الزَّوَاجَ بَعْدَ الزَّوَاج مِنْ عَبْدِ الله!

* * *

إِلَى يَثْرِبَ

وَكَادَ الغُلامُ أَنْ يَطِيرَ مِنَ الفَرَحِ ، فَالأَحلامُ ، وَالتَّوقُّعاتُ رَاحَتْ تُرَاوِدُ مُخَيِّلَتَهُ : كَيْفَ سَيَكُونُ قَبْرُ وَالدِي ؟ وَهَلْ أَنَا أُشْبِهُ أَخْوَالي أَمْ أُشْبِهُ وَالدِي ؟ وَكَيْفَ أَحْوالُ أَقْرِبَائِي في يَثْرِبَ ؟

وَذَاتَ صَبَاحٍ تَوَجَّه الغُلامُ مَعَ أُمِّهِ آمِنَةَ ، واصْطَحَبَا مَعَهُمَا (أُمَّ أَيْمَنَ) ـ وَكَانَتْ جَارِيَةً لَهُمَا ـ إِلىٰ يَثْرِبَ .

وَطِيلَةَ الطَّرِيقِ والغُلامُ يَسْأَلُ وَيَسْتَفْسِرُ ، حتَّىٰ إِنَّ الخَادِمَةَ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ أَسْئلَتِهِ... ، وَلَـٰكِنَّ الغُلام كَانَ يَلْتَصِقُ بِأُمِّه

ولا يفارقها أبداً ، وَكَأَنَّهُ كَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ سَيَفْقِدُهَا بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجِيْزَةٍ!!

* * *

مَا أَجْمَلَ الإِقَامَةَ في يَثْرِبَ!

وَلمَّا وَصَلُوا إلىٰ يَثْرِبَ : اسْتَقْبَلَهُمْ أَخْوَالُ وَالدِهِ عَبْدِ الله خَيْرَ اسْتِقْبَالٍ ، وَفَرِحُوا بِهِمْ كَثِيراً ، وَرَأَوا في الغُلام عِوَضاً عَنْ وَالِدِهِ .

وَخِلالَ شَهْرٍ كَامِلٍ كَانَ أَوْلادُ بَنِي النَّجَّارِ يَصْحَبُونَ الغُلامَ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ مَكَانٍ لآخَرَ ، فَتَارَةً يَأْخُذُونَه إلىٰ بَسَاتِيْنِ النَّخِيْلِ المُحِيطَةِ بِيَثْرِبَ ، وَتَارَةً أُخْرَىٰ يَصْعَدُونَ بِهِ إلى جَبَلِ أَحُدٍ وَغَيْرِهِ ، وَتَارَةً يُحَدِّثُونَهُ عن العَادَاتِ وَالمَعَالِمِ البَارِزَةِ في يَثْرِبَ...

وَكَانَ الغُلامُ يَهْمِسُ في أُذُنِ وَالِدَتِهِ عَنِ الفَرْقِ

الكَبِيْرِ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ يَثْرِبَ ،

وكان يتمنى أن يبقى طويلاً في يثرب!!

لكنْ يَا أَحِبَّتي البراعِمَ : هَلْ كَانَ ذَلِكَ تَمْهِيْداً لِمَا سَيَكُونُ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فيما بَعْدُ ؟ وَهَلْ تَعَرُّفُه عَلَىٰ الصِّغَارِ في يَثْرِبَ سَيَجْعَلُهُ يَعْرِفُهُم فيما بَعْدُ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَلْتقي بِهِمْ بَعْدَ الهِجْرَةِ ؟!

تَعَالَوا يَا أيُّها الأَحِبَّةُ نُتَابِعُ أَحْدَاثَ الحِكَايَةِ النَّبَوِيَّةِ... .

* * *

هَذَا قَبْرُ وَالِدي ؟!

وَقُبَيْل العَوْدَةِ إلىٰ مَكَّةَ صَحِبَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ غُلامها إلىٰ حَيْثُ يَثْوِي زَوْجُها .

وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إلىٰ قُرْبِ القَبْرِ رَاحَتْ آمِنَةُ تَبْكِي ، فَقَدْ تَذَكَّرَتِ الأَيَّامَ الجَمِيْلَة الَّتي قَضَتْها مَعَ زَوْجِها عَبْدِ الله ، وَكَيْفَ كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ لِيَعُودَ من رِحْلَةِ التِّجارَةِ ، لَـٰكِنَّ القَضَاءَ وَالقَدَرَ أَرَادَ أَمْرَاً آخَرَ ، فَقَدْ مَاتَ عَبْدُ اللهِ وَهُوَ في طَرِيْقِ العَوْدَةِ ، وَدُفِنَ هُنَا عِنْدَ أَخْوَالِهِ بَني النَّجَّارِ في يثْرِبَ .

آهٍ مَا أَصْعَبَ الفِرَاقَ! وَيَنْظُرُ الغُلامُ إلى وَجْهِ أُمِّهِ ، فَيَرَىٰ دُمُوعَها تَسِيْلُ علىٰ خَدَّيْهَا ، فَيَقْتَرِبُ

مِنْها يُرِيْدُ أَنْ يُوَاسِيَها ، وَإِذَا بِدُمُوْعِهِ تَسِيْلُ على خدَّيْهِ ، فَقَدْ قَالَ في نَفْسِهِ : لَوْ أَنَّ وَالدِي كَانَ حَيًّاً ؛ لَرَعاني وَحَنَا عَلَيَّ ، وَلَكُنْتُ سَأُقَلِّدُه في كُلِّ حَرَكاتِهِ... وَلَـٰكِنْ...!!

وَتُحاوِلُ آمِنَةُ أَنْ تَتَظاهَرَ أَمَامَ غُلامِها بالصَّبر والقُوَّةِ ، وَيُحَاوِلُ الغُلامُ أَنْ يَتَظَاهَرَ أمام أمِّهِ بالتَّمَاسُكِ وَالعَزِيْمَةِ ، لَـٰكِنْ دُوْنَ جَدْوَىٰ .

* * *

لَقَدْ مَاتَتْ وَالِدَتِي!!

وَانْكَبَّتْ آمِنَةُ عَلَىٰ قَبْرِ زَوْجِها عَبْدِ اللهِ وَهِيَ تَبْكِي ، فَمَا كَانَ مِنْ وَلَدِهَا مُحَمَّدٍ ﷺ إلا أَنْ رَفَعها وَهُوَ يَقُولُ : هَيَّا يَا أُمِّي! نُرِيْدُ العَوْدَةَ إلى مَكَّةَ ، فَقَدِ اشْتَقْتُ إلىٰ جَدِّي عَبْدِ المُطَّلِبِ .

وَبِالفِعْلِ ، عَزَمَ الجَمِيْعُ علىٰ العَوْدَةِ إلىٰ مَكَّةَ ، فَوَدَّعَتْ آمِنَةُ أَقْرِبَاءَ زَوْجِها عَبْدِ اللهِ ، وَوَدَّعَ الغُلامُ الأَقْرِبَاءَ وَالأَصْدِقَاءَ مِنَ الصِّغَارِ ، وَحَمَّلَتْ أُمُّ أَيْمَنَ الأَغْراضَ علىٰ الرَّاحِلَةِ ، وَسَارُوا بِاتِّجَاهِ مَكَّةَ .

وَلمَّا وَصَلُوا إلىٰ مِنْطِقَةٍ تُدْعَىٰ (الأبواء) ،

قَالَتْ آمِنَةُ لِجَارِيَتِها أمِّ أَيْمَنَ : أُرِيدُ أَنْ أَرْتَاحَ قليلاً ، فَإِنِّي أُحِسُّ بِتَعَبٍ شَدِيْدٍ .

وَحَاوَلَتْ آمِنَةُ أَنْ تُخْفِيَ ذَلِكَ عَنْ غُلامِهَا ، وَذَلِكَ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنْ تَجَدُّدِ الأَحْزَانِ .

وَلَـكِنْ مَا حِيلَتُها ؛ وَالغُلامُ شَدِيدُ الذَّكَاءِ ، وَالمُلاحَظَةِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ مَا يَجْرِي حَوْلَهُ بِدِقَّةٍ ؟!

فَدَنَا مِنْ أُمِّهِ ، وَرَاحَ يُقَبِّلُها ، بَيْنَمَا كَانَتْ هِيَ تَحْتَضِنُهُ ، وتَشُمُّهُ ، ثُمَّ تَلْتَفِتُ إلىٰ الجَارِيَةِ ، وَتُوْصِيها بِوَلِيْدِهَا ؛ وَهِيَ تَقُولُ : إِنَّهُ أَمَانَةٌ في عُنُقِكِ يَا أُمَّ أَيْمَنَ ، فَلا تَتْرُكِيْهِ أَبَدَاً!

وَلَمْ تَمُرَّ إلا سَاعَاتٌ قَلِيْلَةٌ حَتَّىٰ كَانَتْ آمِنَةُ تُعَانِي مِنْ سَكَرَاتِ المَوْتِ ، بَيْنَما كَانَ الغُلام يَرَىٰ - وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ كَيْفَ تَخْرُجُ رُوْحُ الإِنْسَانِ - وفي تِلْكُمُ المِنْطِقَةِ دُفِنَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ .

يَتِيْمُ الأَبِ..... وَالأُمِّ

وَفَجْأَةً يَلْتَفِتُ الغُلامُ حَوْلَهُ ، فَلا يَجِدُ إلا الجارِيَةَ ، فَيَصِيحُ : لَقَدْ مَاتَ أَبي وَأَنَا لَمْ أُولَدْ بَعْدُ ، ثُمَّ مَاتَتْ أُمِّي وَأَنَا ابْنُ ستِّ سَنَواتٍ ، وَأصْبَحْتُ وَحِيداً! فَهَيَّا بِنَا يَا أُمَّ أَيْمَنَ فَلْنُسْرِعْ إلى بَيْتِ الله الحَرَامِ!

نَفْسِي لَكَ الفِدَاءُ يَا مُحَمَّدُ ﷺ ، وَرُحْمَاكَ يَا رَبِّ قَلْبَ هَذَا الغُلامِ الصَّغِيْرِ ، كَيْفَ سيتحَمَّلُ مَرَارَةَ الصَّبْرِ وَالفِرَاقِ ؟!

وَكَيْفَ سَيَعِيْشُ هذا الغُلامُ وَحِيْداً فَرِيْدَاً ؟

وَمَنِ الَّذي سَيَرْعَاهُ إلىٰ حِيْنِ أَنْ يُصْبِحَ شَابَّاً قَوِيَّاً يَعْتَمِدُ علىٰ نَفْسِهِ ؟ ؟!

إنَّها حِكْمَةُ الله أَيُّها الأَحْبَابُ البَرَاعِمُ ، وَذَلِك في أَنْ يَفْقِدَ الغُلامُ أَبَوَيْهِ مَعاً ، لِكِنَّ اللهَ يُرِيْدُ لِلْغُلامِ أَنْ تَكُوْنَ كُلُّ حَيَاتِهِ خَالِصَةً للهِ وَحْدَهُ ، فَلا يَعْتَمِدُ علىٰ أَبِيْهِ... وَلاَ علىٰ أُمِّهِ... إنَّما يَعْتَمِدُ عَلَىٰ خَالِقِهِ ، وَبَارِئِهِ... سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ .

وَآخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

* * *